قلق الهوية

قراءة في ديوان الشاعر ياسر أنور

"آخر أخبار ليلى العامرية"



■ د. خالد فهمي*

(١)

«أنا واحد غيري»

إن واحدا مما يميز تاريخ الشعرية العربية كامن في العراقة، بكل ما يسكن هذه المفردة من الامتداد في أعماق الزمن؛ ولذلك فليس غريبا أن يولد على جغرافية اللحظة التي نعيشها ديوان موصول بآباء الشعراء العظام.

هذا الشعور بعراقة الإرث الشعرى العربى ينسرب فى شرايين القصيدة عند ياسر أنور.. ظاهر لديه ظهورا جليا، وهو بعض أسلحته في مواجهة هواجس عاصفة يثيرها قلق الهوية.

وهو الشعور الذى طفى على لسانه حين قال:

لا وردة ستجئ في شفتي
ولا طفل سيغرس في دمي وجع النخيل
أنا واحد غيري تجمد داخلي مطر اشتهائي للجنون
وللصهيل.

وليس يصح الاستسلام لهذا الاعتراف، أو الخضوع لما يظهر على صفحة سطحه؛ لأنه اعتراف مراوغ من جهتين: جهة الرفض لصورة التعامل المعاصر معه، وهي صورة تخدش نبله القديم، وكبرياءه الذي لا يمكن نسيانه، ولا التفريط فيه؛ وجهة الغرور الإيجابي الذي يسكن قلب كثير من التعابير الشعرية.. في عدد من قصائد الديوان، لدرجةٍ ينفلت فيها صوت الشعر عن عمد.. ليقرر ذلك التعالي الذي يحيط شخصية الشاعر، حين يقول:

وطني قد أجاز غير المجاز

وتحدى الجميع بالألغاز

....

قال لي منذ أن أتيت قديما

أنت يا أيها الفتى إنجازي

إن الشاعر هنا واحد غيره، بمنطق التاريخ المجيد الذي يستشعر أنه موصول به، ولكن فقده وسط ركام التراجعات، والهزائم المعاصرة.

وهو أوحد غيره، بحكم ما وصل إليه من ميراث أجداد عظام كتبوا لأمته مجدا تليدا، فرط فيه أهله المعاصرون.

وهو أوحد غيره بحكم البراءة التى كانت، ثم طمرتها غبرة الانكسارات، والتفريطات المتوالية، لقد كان.. ثم آل إلى ما يجلب حزنا مقيما؛ لأن لسان حاله يقرر:

معي ابتسامة طفل

أي معي وطن

وهذه البراءة الملقاة تحت عجلات الزمن الراهن، هي بعض ما يفسر مداعبة الطفل لعدد من سطور قصائده، مثل:

هي لا تنام الآن أيقظها الفتى

واستل طفل الوقت من بين المقاعد

وفى مثل هذا التردد الذي يعكس سكون الوعي الباطن بأحلام البراءة المسئولة، على ما يظهر فى قوله:

وتلعثم الكلمات مدفأتي ومروحتي

أب.. طفل

ويعذرنى الخجل

......

فمن الذى يحتاج مَنْ يا طفلتي؟

وتمتد هذه البراءة المفقودة فى رحلة البحث عنها لتطال مستويات مختلفة ومتنوعة، حتى أن الشاعر يتحسسها، ويشتمها فى ملابسه وبقايا ذكرياته:

ليس لي مثلكم ملابس أخرى

بدوي وأرتدي جلبابي

وعقالي القديم لفته أمى هكذا..

فى طفولتى وشبابي

ويبحث عنها فى الأشياء من حوله:

في مثل: دمية ربما هى المنتهى

......

فى يدي طفلة

وقد آزر صورة الطفل التي تخايل وجوه بعض القصائد صورة العذراء، وهي تنضم مع عدد من المفردات، لتدعم ملامح البراءة التي كانت تسكن روح الشاعر، ثم فارقته مؤقتا، وهو مهموم بالبحث عنها، في وجوه كثيرة من مثل:

الجرة العذراء تصحو مع أذان الفجر تبتكر الصباح

الحجرة العذراء داعبها اختمار القلب

حتى يصل إلى البوح بأمنية صريحة عندما يقول:

طفلتي كلما بكت أخذت ما فى يدي

......

ليت أننى كنت طفلا

لأجل ذلك، فإن كآبة ناتج المفارقة بين براءة المجد الذى كان، وشحوب مرآة زمانه الآن.. دعته إلى أن يقرر فى مفتتح قراءة هذا

الديوان:

أنا واحد غيري

(٢)

ملامح القلق من المعجم إلى الفكرة الكشف عن أبعاد الهيمنة

فى ديوان ياسر أنور (آخر أخبار ليلى العامرية) هيمنة ظاهرة لصوت المرأة، ولصورة الأنثى بدرجة أكثر من معبرة.

وأرجو أن نتفق منذ البداية أن المرأة فى شعر ياسر هنا، ليست إلا مجازا بامتياز.

والمرأة كذلك فى أشعار الشعراء؛ تتبدى جميلة ومشرقة حين تتبدى، وهى تشير إلى شيءٍ آخر، والمرأة فى أشعار الشعراء حين تقض مضاجع التواقين للراحة، وتبعث بأرصدة الهموم إلى قلوبهم، وتؤجج نيران الفكر فى عقولهم، وتفجر أحلام الحالمين.. لا يمكن أن تكون إلا مجازاً بامتياز.

فإذا اتفقنا، ونحن متفقون إن شاء الله، كان ذلك بدء الولوج إلى عالم ياسر أنور فى رحلة عنوانها الزاهي: قلق الهوية.

فى ديوان الشاعر صورة رجل يرى نبل هويته الراسخة منذ زمان طويل بعيد.. وقد نال منه ريب الزمان القائم، ففجر براكين القلق في جوانحه، فأصابت منه ما يوشك أن يهزه هزا عنيفا، يفقده وجوده.

ولعل ما يصدق ذلك، ويرجحه هذا التواتر البادي كثيفا لمعجم القلق، حتى غدا هذا المعجم واحدا من مفاتيح الديوان؛ حتى لا تكاد تخلو قصيدة من مفردة من مفرداته واشتقاقاته:

لا تبحثي عن فارس الأمس النبيل.

ما عاد يقلقه تورط وردة

فى أن تكون

رسالة الحلم النحيل

ما عاد يقلقه انتظارك للندى

قلق أنا من رنة فى الصبح

أو من رنة فى ساعة متأخرة

....

قلق أنا من رنة

تأتي بلا قلب

قالت تقارير المباحث

لم تمت ليلى

اطمئن (قرينة وجود القلق فعلا)

وعندها زاد القلق

يمر بين القرى فى عينه قلق

ما عاد يسمع أصوات الخلاخيل

قلق جدار البيت

يرهق ناظره

قلق

يحدق فى الوراء لكى يرى

هى لا تنام الآن (من ناتج القلق والتوتر)

فر من السرير

النوم، والقلق ارتمى فوق الوسائد

وليس يصح لأحد أن يقرر أن ذلك التواتر لكلمة القلق، ليس كافٍ للإعلان عما يسكن قلب الديوان من رهق التوتر والقلق على تلك الهوية، التي توشك أن تذوب أو تضيع إلى الأبد؛ ذلك أن حقلا كاملا يدعم من قريب ومن بعيد.. هذه

الكلمة المحور، حيث تدور في مداراتها ألفاظ الرومانسية المحزنة، والمعذبة، والمؤلمة، والباكية، والمترددة، والمتلفتة يأكلها القلق، والسهر، والضنى، والهواجس!

من أجل عينيك القوافي تسهر

ووسادتي

قلق الجنين المقمر

الصبح في حلقي يعد هواجسه

......

والليل مصلوب النجوم!

السماء ملبدة الكلام

تتكاثف أحرفه فى الزحام

أنا لا أريد زماني العصبي أستجدي زمان فراشة

طارت شريدة

وليس يصح من جديد أن يتغافل أحد عن هذه الهوية/ الأمة وهي تتزيا.. وتتخلق فى صورة امرأة حازت شروط الجمال، واستجمعت في قسمات وجهها كل ملامح الحسن الأصيل، وجمع لها محبوها على امتداد الزمان كل علامات الزينة، ولم لا؟! أليست هي التي دوما:

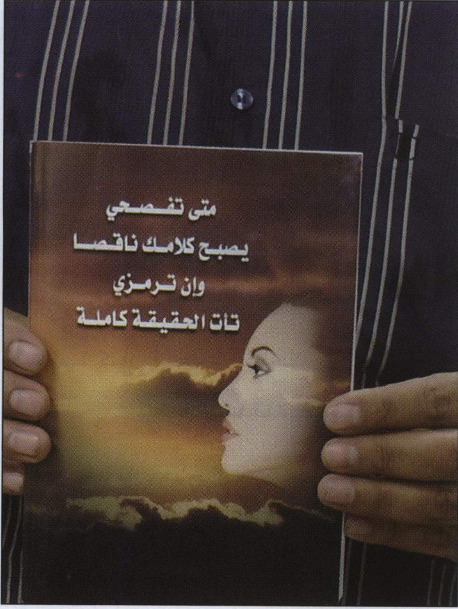
عاشت مدللة الملابس كالبنات

وخدها ما بين والدة ووالد

وليس هذا التأويل من قهر الدلالات أو اعتسافها فى الديوان، وها هو ذا ينطق كالصوفي، طفحت الحقيقة من قلبه على لسانه:

يا وجه معجزة تطل على المدى

كمسلة



فيها الزمان يسطر

يا بنت مصر

لك الحضارة طرزت

فستانها

والمتأمل فى جوانب الديوان لا يسعه إلا أن يخضع خضوع الاستسلام لصورة المرأة، وهي تتبدى مجازا كلها، وتشرق مجازا كلها، وتتخايل كبدر التمام، تحيط الإنسان فى الديوان، وتشكل وجدانه وعقله، وبناءه كله، حتى تغدو هي وعيه، وهويته، وصميم كينونته.

إن الذين يشغبون على هذا الذى يتبدى من وراء التعابير التي تحيط بالأنثى فى الديوان.. مطالبون بأن يجيبوا عن السؤال الذي يقول: أيّ امرأة تلك التي يقول فيها الشاعر:

ووالدتي من تخبز الوقت عادة

حكايات حب فوق صنم من الخشب

ويقول أيضا:

ما الذي أعجله عن دمية

والخطا كانت كغيم مبطئه

خلف أنثى أشعلت فيه المدى

وأطاحت بالذي قد هيأه

كان وجها موغلا في عشبه

وسحاب من ضياء وضأه

حسنها كان يواري ضاحكا

ما أعدته فخاخ السيئه

فإن ظل باب الارتياب يصطفق أحيانا جيئة وذهابا، انفتاحا وانغلاقا، فإن القارئ المرتاب فى أمر المرأة في الديوان، عليه أن يقف طويلا أمام هذه اللوحة، التي تكشف الستر عن رمزية الأنثى، حين يقول الشاعر:

أقسمت يا ربي ويا رب الفلق

أقسمت يا ليلى بمن حقاً خلق

أنت الحقيقة والشريعة والنسق

أنت الكلام إذا تلخبط واتسق

وإذا كان هذا الذي غلب على لسان الشاعر، وهتك ما استكن في ضميره الشعري هكذا.. كان أمرا سائغا أن يقرر:

لكن ليلى لن تخون قلادتي

ليلى التي

عهدي بها يوما وثق

ما زلت انتظر القوافل فى المدى

فلعل هودجها

يجئ مع الشفق

هذه الروح المهيمنة على الديوان، مدعومة بمعجم، منسربة في أبنية القصائد جميعا، ومدعومة بفكرة تتبدى شفيفة من خلف قناع المرأة الجميلة، الماجدة، الكريمة، المقاومة!

ومما يزيد من جلال الرؤية الطامحة نحو استعادة الهوية.. كاملة من براثن خلق قاتل فاتك يتهدد مستقبلها، بسبب من وهن اللحظة الراهنة، لجوء الشاعر إلى التكافل (أو ما يسمى بالتناص)، مع شاعر البحث عن الهوية العربية الأكبر، أبى الطيب المتنبي.

كان الراحل العظيم مصطفى ناصف يملي علينا أن في شعر أبي الطيب صورة رجل نبيل في ماضيه.. مهين في حاضره، يتمسك بأهداب تاريخ مجيد، تصارع الزمان، لكن الزمان يوشك أن يغلبه ويصرعه، لكنه يتمسك ببعض نبله القديم، ويقاوم عن طريقه السقوط.

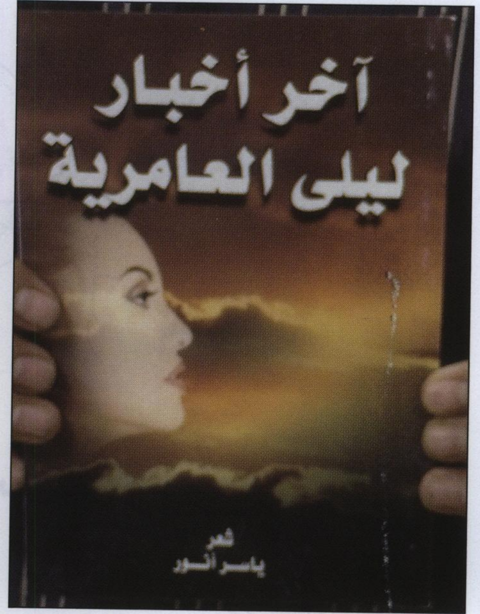
وأنت واجد فى ديوان ياسر إعادة استحياء لصورة هذا النبل الذى ما غاب، والذي ما فتئ يبكي غربة الأيام وسيول الأحزان، وهو يسكن روح أبى الطيب بعض قصائده عندما يقول:

يا ساقي أنبل في كئوسكما

أم في كئوسكما شتى مواويلي

والاتكاء على بيْن المتنبي، المكتنز بآلام الغربة فى أرفع ميادين الفرحة.. مشعر بحجم التمزق الذى يصيب نفس الشاعر بسببٍ من قلق الهوية، وهواجس مخاتلة الزمان لمجدٍ كان.. ثم تبددت معالمه الآن.

الشاعران كلاهما يرثيان امرأة يخاتلها الواقع الخائن، يريد أن يسرق منها ما لا يعوض، وهي تقاوم بما تملك من بقايا المجد القديم، والأصل العريق، والمروءة التى تقاوم بقيتها غدر



الزمان، وتزاحم اللثام.

فى ديوان ياسر أنور صورة امرأة، تعرف هي.. ويعرف كل من رآها وخبر أمرها - طهارتها، وزكى جسدها، يغالبها الخداع مريدا إسقاطها من عليائها، وهي تأبى عليه إلا أن تسترد براءتها، وطهارتها وعفتها وجمالها البدوي غير المصطنع!

(٣)

بقية من عناصر داعمة

ومن وجهة أخرى، فإن ثمة ملامح فنية فى جسم الديوان تؤكد هذا الذي رمناه من خلف قراءتنا.

إن عددا من الصور، مع الاعتراف بتراجعها إحصائيا.. تؤكد ما تذهب إليه القراءة، ولا سيما عندما يقرر (أرضعتني صمودا) وعندما يلح في استدعاء أماكن تملأ حنايا الديوان بالجلال من مثل (الحجاز/ ومصر/ والنيل... إلخ).

وعندما يغلف الديوان فيزياء من ألوان تدعم أجواء التوتر والقلق، وعبس الرؤية الذي ينتجه انتشار الغمام، والغيم، وتواتر الأحلام، وهجوم المساءات، وارتفاع الجدران بسببٍ من التشكيل الطباعي الذي صُنع من كلمة (جدار).. جدارا حاجزا مائلا يوشك مع الإصرار أن ينهار، وربما بسببٍ من السحابة الحبلى التي توشك أن تسفر عن صحو بعد أن تضع حملها!

وعندما تنتشر حروف المد واللين.. صانعة نوعا من بطء الحركة التي تغل حركة الحزين، القلق المسكون بالهواجس.

وعندما يبدو الشاعر ماهراً في استعمال تقنية التضاد والطباق، خالقاً بها إيقاعا داعما للقلق الذى يغمره، ويسكن نفسه، ويكسره خطوه..

وعندما يزدان كثير من القصائد ببلاغة الوصل، عن طريق العطف الذي يصنع المفارقة والمخالفة بطبيعة كينونته، لتتأكد سطوة القلق على الهوية فى الديوان.

لقد بدا الشاعر، وقد استولت عليه فكرة الريادة التى فجرت قلق الهوية، وهي الروح التي لا تركن إلى التأصيل والتعميق، وإنما تطير مستعملة تقنية التحليق، مهمومة بمس القضايا جميعا، شغوفة بالتقاط كل ما من شأنه أن يعجل باستعادة الغائب المنتظر الذى ينبغى أن يئوب!

* كلية الآداب / جامعة المنوفية.